

تقديم

بقلم الدكتور / محمد شعلان

أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر

حينما دخل الطب النفسي ضمن مناهج التدريس في كلية طب جامعة الأزهر منذ حوالي خمسة عشر عاما تساءل بعض العلماء النفسيين الأجانب عن إمكانية التعايش بين العلوم الإنسانية - وعلى رأسها علم النفس - و العلوم الدينية في جامعة هي في الأصل جامعة دينية وكانوا في تساؤلهم هذا يسترجعون ذكرياتهم الأليمة حول الصراع بين العلم و المؤسسة الدينية منذ العصور الوسطى وحتى الآن رغم ما يبدو من حسم للمعركة لصالح المؤسسات العلمانية .

وكان السؤال بالنسبة لطالب علم مسلم يعتز بالأزهر و تراثه غريباً و غير متوقع ، ولذا كانت الإجابة بالنفي ، فالحضارة الإسلامية لم يكن فيها ذلك الفصل المصطنع بين الدين و الدنيا ، إذ أن الدين دنيا و آخرة معاً ، ولم يكن فيه رجال دين و رجال علم أو دنيا فعالم الدين التقى يعمل و يكدح و يحيا وسط الناس و مثلهم ، وهو عالم دين ، و ليس كاهناً أو رجل دين و قد يكون متخصصاً أو هاوياً ، بل غالباً ما يكون صاحب مهنة ، أو تخصص ((دنيوي)) بل يدوي وبسيط أيضاً ، فالعلم في الإسلام لم يكن قاصراً على المعرفة العقلية المنطقية المنفصلة عن الوجدان لم يكن هناك فجوة مصطنعة بين المعرفة و الوجود ، أو بين الفكر و الفعل .

كان سؤال صاحبنا الأوروبي هذا يحمل وراءه خليطاً من الإشفاق و التعالي في توقعه أن يتعرض العلماء في الأزهر لما تعرض له علماء الغرب من محاكم تفتيش تناقش المنطق بمناطحتة بالحدس ، والشك بمناطحتة بالإيمان ، و العلم بمناطحتة بالدين ، كان يتوقع أن تثار قضايا في الأزهر مثل : هل نظريات كوبر نيكوس ، أو داروين أو فرويد – وهو ما يهمنا في هذا المضممار – كفر وتشكيك في الدين ؟

و لعله كان له عذر في تشكيكه هذا نظراً لما عانى منه العلماء في ظل سيطرة الجهل المستتر وراء السلطة الكهنوتية الدينية في العصور الوسطى ، وربما كان عذره أكبر لما بدا له من بعض مظاهر مشابهة يعلو صوتها أو سلطتها بأكبر من مصداقيتها أو تأثيرها ، فالحق أقوى بكلمته الهادئة من الباطل ذي الحنجرة الصاخبة و النفوذ ، وهو بما يقوم به من نصرة الحق أبقي من السلطان الذي ينتصر بقوة مادية زائلة و زائفة . و الباطل و إن كان ضئيل الحجم يبرز وسط ضوء الحق المنير .

فهل رأى زائرنا الأوروبي مثل هذه البقع السوداء في بياض الأزهر الناصع وتاريخه الشريف ؟ و لعله سمع عن محاولات لم يكتب لها إلا الإجهاض من سلطان يحاسب عالماً حول آرائه العلمية لمجرد أنها لا تتماشى مع ضحالة علمه الذي جناه من كتابات سطحية ، أو سمعها من معتقدات شائعة ، أو أن هذا السلطان يردد بعض أقوال ، أو يحلم بأساليب محاكم التفتيش في مطاردة طالب علم ، أو معلم كتلك التي كانت تقال عن كوبر نيكوس ، و داروين و فرويد .

معذور هذا الزائر إن راح يشكك في رفعة الأزهر و الإسلام ولكنه مخطئ أيضاً فالأصوات العالية ، و الحناجر الخالية ، و العقول الخاوية موجودة في كل مكان بما فيه ذلك العالم الأوروبي المتحضر الذي ينتمي إليه زائرنا ، ولكن لا يحكم بهذه الحالات الشاذة على الغالبية العظمى .

إن غالبية علماء الدين ((أي كافة العلماء بالأزهر الذي لا يفرق بين دين و دنيا ، بل يجمع في الدين بين الدنيا و الآخرة)) علماء بمعنى الكلمة ، وإن لم تسعفهم الأساليب الإليكترونية في جمع الأسماء اللامعة الأجنبية و الاستشهاد بها، فعلمهم و إن كان ينقصه بعض المصطلحات اللاتينية فليس هذا لفقر في اللغة العربية بقدر ما هو فجوة زمنية يحتاجها العلماء حتى يعربوا العلم الحديث و يؤصلوه في القديم ليعيدوا اكتشاف ثراء لغتهم الذي يسمح له باستيعاب المصطلحات العلمية و ربطها بالمفاهيم الإسلامية .

و في مجال علم النفس بخاصة كان للإسلام سبق و إن لم يستخدم مصطلح علم النفس ، أو أساليبه الحديثة ، بل إن الأصل في الطب الإسلامي بل و العلم الإسلامي أنه علم نفس سواها ربها فآلهمها فجورها و تقواها ، نفس فيها ما يأمر بالسوء ، و ما يلوم و ما يطمئن ، نفس ملهمة في مسيرتها لأن تكون راضية مرضية ، و في الأصل كما في الخاتمة هي نفس واحدة منها الذكر والأنثى دون أن يتميز جنس على جنس ، أو عربي على أعجمي ، أو متجبر على مسكين . النفس الواحدة هي من وعاء التوحيد الذي يشكل المحور الأساسي في الفلسفة الإسلامية .

وفي هذه المحاولة من عالم فاضل من علماء الأزهر الناشئين ، نرى الدكتور محمد طه عصر عالم النفس و اللغة و الأدب ، و عاشق العريية و أدبها و جمالها يقدم لنا محاولة لاستيعاب علم الغرب ومصطلحاته في التحليل النفسي ليتفهم الشاعر بمثل ما يتفهم شعره ، فالشعر جماله في لفظه و معناه مثلما هو في شخص ناظمه و متذوقه .

الشعر شاعر ومستمع ، وكلاهما منبعه بيئة اجتماعية وحضارية إسلامية في جذورها متفاعلة مع الغرب في فروعها. في الجذور لم يكن الفصل بين الجسد والروح ، ولكن الفروع أدخلت علينا قيما جعلت من ناجي – شاعرنا العظيم موضع التحليل – يتأثر في نشأته بها فهو يفصل بين الرغبة الجسدية الغريزية وبين الحب المتسامي ويظهر صراعه من أجل التوحيد ((أو ما يقابل التفرد Individuation عند يونج)) بأن يجمع على الضدين على كل مستوى ، ويحل صراع الأضداد بين الروح والجسد والخير والشر ، والحب الشبقي والحب الإلهي فتختلط الألفاظ ويبدو وكأنه يجعل من المرأة كعبة .

إلا أن التراث ملئ بتلك التشبيهات التي تجعل عاشق الله يتحدث بالفاظ قد لا تبدو روحية في ظاهرها إلا أن الشاعر يعلم أنه بهذا إنما ينقل نفسه وقارنه معه من الأدنى إلى الأعلى ، يأخذ من الألفاظ ما يبدو دينياً ليرتقي في المعنى إلى ما هو في الحقيقي سام .

يأخذنا الدكتور محمد طه عصر في رحلتين مندمجتين مرة أخرى في السعي نحو التوحيد فهو يسعى مع موضوع دراسته ، و هو أيضاً موضوع حبه و تقديره إلى الصعود معه من خلال النزول ، بأن يفهم دوافع الشاعر الغريزية وأصولها

النفسية التي يمكن وصفها بالمرضية ليعلم ويعلم أن ما يكون الدافع إليه في الأصل عجزاً قد يسمو به صاحبه و يسمو بصاحبه إلى مراقبي القوة . إنه يعيش عذاب خضوع العاشق لعشيقتة ، واستمّاعه المازوخي بالعذاب على يديها لا ليقف ويتوقف ويتعثر ولكن لينمو و يحول النحاس إلى ذهب ، ويرتفع بالألم إلى البهجة .

وفوق هذا فهو يتدرج أيضاً في مراجعه العلمية الغربية من الفرويدية المحدودة إلى ما أثارته وولدت من توسع و تعمق ، فانقل إلى الإستعانة بيونج الذي كان أول من خرج على تلك المفاهيم الفرويدية المحدودة ليعطي للنزعة الدينية في الإنسان مكانة تساوي بل تفوق النزعة الغريزية الجنسية .

في هذا الكتاب نرى تطور دراسة عن شاعر فنرى تطور مجتمع وتطور دارس ، فالكل يسير في رحلة لها جذور عبر جذوع ، و إلى فروع و أزهار ، وبذور وميلاد جديد . والجديد لا بد له وأن يكون جريئاً ، والجري لا بد له من مواجهة مع الخائف العتيق .

ونحمد الله مرة أخرى أن جامعة الأزهر يغلب عليها القوة و الثقة التي تجعل من أي بقعة سوداء مجرد ذبابة نتعلم بها الصبر والقدرة على التحمل وسعة الأفق والتسامح . سامح الله من فعل وهذاء ، وعضد من سار على هداه ووفق خطاه .

د . محمد شعلان

أستاذ الطب النفسي بكلية طب جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

صلة الشاعرية بالصحة أو المرض النفسي موضوع يثير فضول الأدبيين وتطفلهم المعرفي بقدر ما يبعث التثريب والحرص ، فالشاعر في الموروث الأدبي ذاكرة الأمة وضمير المجتمع والنفس التي تبدع الجمال لابد أن تكون آية في الصحة وأن يذرها الإبداع قاعاً صنفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمماً إذ أن ((الذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً)) كما يقولون^(١) ، وزاد من تحفظهم أن المرض النفسي في توهم الكثيرين اضطراب كلي يجرد صاحبه من الاتضباط والتبصر . ويقتضي تدخلاً لعلاجهِ والحجر على تصرفاته وبهذا خلطوا بين النفسي والعقلي وتصوروا أن تحليل الشاعر يقتضي استنطاقه بشخصه وفحص عقله وأعصابه ، وهو شئ إذا أمكن مع الأحياء إن هم وافقوا فكيف بمن كانوا تراباً وعظاماً ، وذهبت أعصابهم وعقولهم فيما ذهب من أجسادهم !؟

والواقع أن الموضوع حرج مما لا يستدعي الحرج ، فالشاعر يستمد أخبالاته من باطن يعتوره ما يعتور أي إنسان من العلل تنتاب نفسه كما تنتاب جسده ، وليس المرض النفسي حتى في صورته ((الأكلينيكية)) إلا اضطراب وظيفي قوامه الخوف والقلق والاكتئاب والوسوسة وشئ من

(١) أيليا أبو ماضي ، ديوان الخمائل قصيدة (كن جميلاً) .

الأفعال التفسيرية ، ونحو ذلك من الاضطرابات الانفعالية التي لا علاقة لها بعقله ، ولا تستدعي بالضرورة تدخلا لعلاجها والحجر على تصرفاته ، كما لا تحول دون تحمله مسئوليته أو قيامه بواجباته ، وتبصره بعقله وأدائه وتلك هي المفارقة الدقيقة بين المرضين ((neuroses ، psychosis)) العقلي والنفسي ، لهذا استبدل بالآخر مصطلح أكثر دقة وتحديدًا ، وبعدا عن الحساسية والتحفّظ وهو العصاب ، دون أن يعني ذلك إشارة إلى اضطراب عصبي كما قد تغري الدلالة اللغوية لمادة ((عصب)) التي اشتقت منها الكلمة إذ لا توجد بالضرورة علاقة مضطربة بين الاضطرابين العصابي والعصبي ، فثمت شعراء يكابدون التهيج العصبي دون أن يكونوا عصابين ومن العصابين من تبدو عليهم أعراض عدة ليس من بينها العصبية .

إننا جميعا نقر بمرض - أي شاعر - نصفه بالخوف ، القلق ، الاكتئاب ، الوسوسة ، التوهم ، السوداوية ، الهلوسة ، الانفصام ، الازدواجية ، الهوس ، الطفولة ، العدوانية ، التوجس ، أو نحو ذلك من الصفات النفسية التي نطلقها في السياق الأدبي ، دون أن نحاط في إطلاقها ، أو نعمل حسابا لانتماءاتها المعرفية باعتبارها إفرازات لحالات تختلف أسبابها وأعراضها ، ودرجاتها تبعا لفعاليات البيئة وأساليب الثقافة والتنشئة فالقول إذن أن شاعرا ما عصابي يعني أن ثمة اختلالا في بنيته النفسية لضغوط اجتماعية تعرض لها في طفولته ثم عززتها في الكبر مواقف إحباطية أفقدته التوافق وسلبته التكيف والاتزان ، دون أن يكون لذلك بالضرورة علاقة بأعصابه ، ويكون خوفه من بينته داخلية أو خارجية هو حجر الزاوية في قلق لديه بدأ بسيطا ثم تضخم فكاد يفضي إلى اكتتابه وهنا تصبح شاعريته قناعا لذاته ، وتفرغ discharge لباطنه ، وآلية دفاعية mechanism تحصنه ضد اكتتابه فتسقطه قبل أن يسقط هو ضحيته .

وما دمنا نقرر أن ((الأسلوب هو الشخصية)) وأن ((المعنى في باطن الشاعر)) فإنه بإضافة هذه إلى تلك يصح لنا أن نستنتج أن الشعر قطعة من نفس الشاعر ، وشريحة موثقة من تهويماته ، وأخليته يكشف باطنه ، ويقرر حالته وينوب عنه حيا أو ميتا دون حاجة إلى وجوده ، بشخصه لاستنطاقه ومخاطبته . وإذا كان الطبيب النفسي كثيرا ما يستعين في كتابة تقريره بشخص لصيق بمرضه وهو ليس جزءا منه ، فكيف يشعر هذا المريض وهو قطعة منه ؟! كذلك دارس الأدب إذا جمع بين الحسنين التخصص الأدبي والتخصص النفسي ، وكان قبل ذلك شاعرا خبر الشعر وعاناه ودفع إلى مضايقه فإنه يستطيع أن يميز السادي والمازوكي والهوسي والفصامي والنرجسي والأوديبوي وغير ذلك من الأنماط العصائية أو الذهانية التي تتطوي عليها لغة الشاعر وتقنياته الأسلوبية وأن يقرر ما إذا كانت مؤشرا على المرض أم دليلا على الصحة ، وهل توجد علاقة سببية بين الشاعرية وكل من المرض والصحة النفسية ، وأن يعرف القدرات الفنية للعصابيين وعلاقاتها بالعوامل الوراثية ، والنفسجسمية والسبب الذي يجعل هذه الفئات الخاصة تبدع الشعر ثم السبب النوعي لتوجهها الأدبي .

في ضوء هذا التصور سنتخذ من ديوان الطبيب إبراهيم ناجي ((١٨٩٨-١٩٥٣)) مادة للبحث لأنه في رأينا حالة خاصة تتطوي على شخصية عصائية وطبع عصبي ، ونفسية مازوكية لم تستطع أن تسبرها الدراسات الأدبية التي أعقبت نشر ديوانه هذا ١٩٦١ حيث نحت عليه خمس عشرة قصيدة من ديوان آخر لشاعر معاصر^(٢) وما أن نشر الديوان

(٢) هو الدكتور كمال نشأت أستاذ الأدب العربي بجامعة الإسكندرية .

حتى وقعت الواقعة وقامت قيامة الأوساط الأدبية ولم تقعد حتى سارع المسؤولون بسحب الديوان بعد الاعتذار وتصويب الخطأ لأن الأمر كان قد رفع إلى القضاء وصدر حكم بإدانة المسؤولين جاء في حيثياته ، ((أن أعضاء اللجنة لم يؤدوا رسالتهم التي كلفتهم بها وزارة الثقافة وهي تحقيق شعر شاعر معاصر لهم ، عاش معهم ، وشاركهم مكانتهم في بعض الوقت ، وأن خطأ المدعي عليهم كان من اليسير تداركه لو أنهم توخوا الدقة في البحث ، واتبعوا الأساليب العلمية في التحقيق))^(٣) .

تلك هي القضية وذلك هو الحكم ، أما اللجنة^(٤) فما أدراك ما هي ؟! استاذ متخصص في الدراسات الأدبية وشاعران ومعهم شقيق الشاعر !!! لجنة تجمع بين الحسنين : صلة النسب وصلة الأدب ، ولكن هيهات هيهات فالشاعر كما قلنا حالة عصابية خاصة لا تغني هذه القرابة في تشخيصها فتिला ولا قطميرا . وبالطبع لم يجد المدعي عليهم حجة تبرر خطأهم غير ((الرومانسية)) التي تجمع بين ناجي ومشاكليه كأنهم روح واحدة يصدر عنها أنفاس متلاحقة ، أو دم واحد يجري في عروق متعددة دون مراعاة لفروق الطبع والمزاج والشخصية .

لهذا سنتناول الشاعر بطريقة مختلفة مستخدمين القياس الإحصائي لاسلوبياته وتقنياته ووحداته البنيوية ، ضاربين تحت جذورها لاستدراج كل ما هو لا شعوري ، وتحويله إلى منطقة الشعور معتمدين التحليل النفسي psychonalysis مرجعا ونظرية لسبر ذلك السديم الوجداني الذي يسمى

(٣) تفاصيل القضية في جريدة وطني ٢٠ / ٨ / ١٩٦١ م عدد ١٤٠ .

(٤) أعضاء اللجنة هم : د . أحمد هيكل ، الشاعران صالح جودت وأحمد رامي ، ومعهم الأستاذ محمد ناجي شقيق الشاعر .

((باطن الشاعر)) والذي يشبه سطح البحر يوهم لسكونه وصفاء مائه أن في أعماقه درا لا كدرا ولا طينا. وليس معنى هذا أننا نرمي بالتحليل النفسي إلى تلطيخ الشاعر وتشويهه والجهر بالسوء من باطنه ، وإنما نهدف إلى الوقوف على تلك السمات الوجدانية الفارقة التي تميزه ممن نحل عليه شعرهم أو تشاكل فالتبس به ، كل ذلك في محاولة لتدارك ما فات تلك اللجنة الأدبية من ((توخي الدقة في البحث واتباع الأساليب العلمية في التحقيق)) وهي محاولة تواكب طموحنا الدائم إلى تحقيق علمية النقد الأدبي وضبط معاييرهِ ليصبح علما له أدوات العلم ووسائله الدقيقة ، ولنعيد الثقة في معطياته المعرفية التي أتى عليها حين من الدهر تدور في فلك المعاد المكرور بحثا عن المعنى في ظاهر اللغة لا في باطن الشاعر .

ولا تخفى صعوبة محاولتنا هذه ووعورة تضاريسها وحاجتها إلى المعارف النفسية على اختلاف مصادرها الطبية والفسيلوجية والانثروبولوجية ، فضلا عن روافد التاريخ والميثولوجيا وعلوم اللغة والجمال ، كما لا تخفى أن نتائجها تتطوي على ادعاء الوصول إلى باطن الشاعر بطريقة جازمة بما قد يتعارض مع سديم هذا الباطن وتعتقد مخزونه من ناحية ، وبساطة بنيته اللغوية ووضوحها الظاهري من ناحية أخرى ، من حيث أن هذه البنية باعتبارها أداة لهذا الباطن ، يمكن أن تستدرجها التداعيات الاسلوبية ، فتتطوي على تجربة خيالية لا صلة لها بهذا الباطن وأن ثقافة الشاعر قد تسير به في خط مواز لباطنه ، فتصير هي الأخرى هما ضاغطا يراوده ويملي عليه مذهبه ووجهته وهويته الأدبية فما يشاء أو يرضى إلا ما تشاءه هذه الهوية وترضاه ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة طمس الفروق الفردية ، أو مصادرة الجينات الوراثية حتى بين أبناء المدرسة أو الجماعة أو الأسرة الأدبية الواحدة ، لأنه بتمركزه الذاتي وما يملكه من تقنيات التطعيم

والتقليد يعبر عن ذاته مهما كان انتماءه المذهبي ومهما حاول التمويه أو التعتيم ، ذلك أن مؤتفكاته الباطنية تظل هما ضاغطا يبحث عن أخيلة تعتصرها وتلقف ما تتطوي عليه من أمنيات معوقة ، أو رغائب مكفوفة ، بل إن توجهه نحو مذهب ما وارتضاءه دون غيره إنما هو جزء من عقله الباطن حتى إذا ما ورد هذا المذهب فإنه يتجرع بعضه فيسيغه ويتجرع الآخر ولا يكاد يسيغه ولهذا قيل ((اختيار المرء قطعة من عقله)) .

والبحث الذي بين يديك يتناول ((حالة خاصة)) تقع في ستة محاور تتضمن ثلاثتها الأولى أعراض هذه ((الحالة)) متبوعة بثلاثة أخرى أحدها عن الشاعرية والصحة النفسية والثاني عن الشاعرية والذهان ثم موازنات تعكس الفروق الفردية بين الشاعر وأثرابه ممن نحل عليه شعرهم أو تشاكل فأقحم في ديوانه ، وسوف نعتمد على النص ذاته ومن خلال هذا الديوان المشكل لنتتبع بطريقة عرضية ، جذور هذه الحالة اختباراً لصدقها وثباتها واطرادها بآلياتها وحرفياتها على لغته وأسلوبه وتقنياته الفنية . دون أن نقتصر على تصنيفه تبعاً لعصره أو إقليمه أو انتمائه المذهبي أو نحو ذلك من التصنيفات الأدبية التي لا تقيم أودا ولا تشفي غلة ولا تهض وحدها لتمييز الفروق الفردية بين شاعر وآخر ، واضعين في الاعتبار أن نقدنا القديم كان محصلة لحقب ثقافية أتيح فيها لللاحق ما لم يتح لأسلافه ، وأن القدماء أنفسهم فطنوا إلى صلة الإبداع بقلق الشاعر وخوفه وتوهمه واضطرابه ، وتفاوت أحواله وفساد أو صحة طبعه وحاشيته أو ماعون بيته ، ولم يكن بينهم وبين تقرير مرضه إلا ضربة معول حين أشاروا إلى اختلاف مجاله الإدراكي والوجداني من حيث أنه يشعر بما لا يشعر به غيره ويفطن إلى ما لا يظن إليه سواه حتى ليقولون به جنة وليس بشراً من طين .

د . محمد طه عصر

المنامة في يونيه ١٩٩٧ م